المحاضرة الحادية عشرة دور أدب المقامات في كشف عيوب المجتمع العباسي

مدخل:

ظهرت المقامات في العصر العباسي نتيجة للتطور الثقافي والسياسي والاجتماعي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ظهر نوع أدبي جديد يدعى بالمقامات.

يمكن القول: إن جوهرها تلك القصص والحكايات، إلا أن مبدعيها تعمدوا التصنيع والتأنيق فيها، وبالتالي هو ثمرة لتطور داخلي ونوعي للفكر الأدبي العربي بعد قرون من البناء الحضاري، وهذه المقامات تضم الحكايات والنوادر والمطايبات، بينما لا تخلو من جوانب تاريخية وحكمية وأدبية، قصة قصيرة لها وبطل، تقوم على حدث ظريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة.

تحمل في داخلها لوناً من ألوان النقد أو السخرية وضعت في إطار من الصنعة اللفظية أو البلاغية، وهي أقرب إلى أن تكون قصة قصيرة تكتب بلغة إيقاعية ينقلها راوٍ من صنع خيال الكاتب، يصوره وكأنه قد عاش أحداثها، ولها بطل إنساني مشّرد ظريف ذو أسلوب بارع وروح خفيفة، يتقمص في كل مرة شخصية معينة، يضحك الناس أو يبكيهم أو يبهرهم؛ ليخدعهم وينال من أموالهم، ضمن حدث ظريف فحواه نادرة أدبية أو مجموعة مسائل دينية أو مغامرة هزلية تحمل في طياتها لوناً من ألوان النقد والسخرية وسقوط القيم؛ لتمثل صوراً من الحياة الاجتماعية في العصر الذي كتبت فيه.

هدف المقامة نقد العادات والتقاليد السيئة والشخصيات السلبية فى المجتمع، وتقوم على التفنن في الإنشاء، والاهتمام باللفظ والأناقة اللغوية وجمال الأسلوب، وغالباً ما تؤخذ أسماء المقامات من اسم البلد الذي انعقد فيه مجلسها، فمن أسماء مقامات الحريري: المقامة الصنعانية، المقامة الحلوانية، المقامة الكوفية، المقامة المراغية، المقامة الدمشقية، المقامة البغدادية، المقامة السنجارية...

المقامة في اللغة:

الأصل في المقامة أنها اسم مكان من أقام، ثم أطلقت على المجلس، فقيل: مقامات الناس، أي مجالسهم التي يتحدثون فيها ويتسامرون ؛ فاستعلمت بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها على نحو قول زهير:-

وفيهم مقامات حسان وجوههم .:. وأندية ينتابها القول والفعل

وتأتي بمعنى الجماعة التي يضمها المجلس أو النادي كما في قول لبيد بن أبي ربيعة:-

ومقامة غلب الرقاب كأنهم .:. جن لدى باب الحصير قيام

وتطور معنى المقامة عبر العصور حتى أصبح يعني (الأحدوثة من الكلام). يقول القلقشندي" وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها

المقامة في الاصطلاح:

أما المقامات في اصطلاح الأدباء فهي فن كتابي سردي، عبارة عن أحاديث خيالية أدبية بليغة، حكايات قصيرة، تشتمل كل واحدة منها على حادثة لبطل المقامات، وهو الراوي الذي يرويها أو وقعت لمن يروي عنه راوٍ معين، تلقى في جماعة من الناس، فمفهومها يمكن بلورته في أنها قصة قصيرة "بطلها أنموذج إنساني مُكْدٍ متسول، لها راو وبطل وتقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لوناً من ألوان النقد أو التعويل على الواقع أو السخرية، وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية" وهدفها الرئيس تعليم الناشئة اللغة وأساليبها.

ويغلب على أسلوبها السجع والبديع، وتنتهي بمواعظ أو طرف وملح. أي إنها حكاية قصيرة، تقوم على الحوار بين بطل المقامات وراويها. والمقامات تعد من البذور الأولى للقصة عند العرب، وإن لم تتحقق فيها كل الشروط الفنية للقصة، ثم أصبحت تطلق على الحديث الذي يدور في مجالس السمر من باب المجاز المرسل.

نشأة فن المقامات:

على الرغم من الخلاف في مبتكرها إلا أن الرأي الراجح أن أول من أنشأ المقامات في الأدب العربي هو العالم اللغوي أبو بكر بن دريد (المتوفى عام 321 هـ)، فقد كتب أربعين مقامة كانت هي الأصل لفن المقامات، ولكن مقاماته غير معروفة لنا. ثم جاء بعده العالم اللغوي أحمد بن فارس (المتوفى عام 395 هـ)، فكتب عدداً من المقامات أيضاً. ثم جاء بعده بديع الزمان الهمذاني، وكتب مقاماته

المشهورة، وقد تأثر فيها بابن فارس حيث درس عليه. ويعتبر البديع هو الرائد الحقيقي للمقامات في الأدب العربي. ثم جاء بعده كتاب كثيرون، أشهرهم أبو محمد القاسم بن على الحريرى صاحب المقامات المشهورة بمقامات الحريري. ثم كثر كتاب المقامات كالزمخشري العالم اللغوي المفسر، وقد سمى مقاماته (أطواق الذهب)، وابن الاشتركوني السرقسطي الأندلسي (توفي عام 538 هـ)، صاحب المقامات السرقسطية، وبطلها المنذر بن حمام، وراويها السائب بن تمام، ومقامات الإمام السيوطي.

وفي العصر الحديث أنشأ محمد المويلحي حديث عيسى بن هشام، وناصيف اليازجى "مجمع البحرين"...

خصائص المقامـات :

1- أسلوب المقامات مملوء بالصناعة اللفظية من جناس وطباق والتزام تام بالسجع الذي يُسَهِّل حِفْظَها ويجعلك تعجب وتطرب لما فيها من إيقاع لفظي ظاهر من خلاله .

2- تغلب على ألفاظها الغرابة لما للمقامات من غاية وفائدة تعليمية واضحة تجاه اللغة، فعندما يحفظها الطلاب وشداة الأدب فإنها تزودهم بذخيرة لغوية مفيدة، وتمدهم من اللغة بغريبها ومن الزخرف اللفظي بسجعه، كما تشتمل على وفنون البلاغة المختلفة من تشبيهات وكنايات واستعارات, وبخاصة الفنون البديعية كالطباق والجناس وغيرها، بصورة تطبيقية سهلة ومحببة .

3- مليئة بالقصص والحكم والمواعظ.

4- يختار كاتب المقامات لمقاماته بطلاً تدور حوادث المقامات حوله، ورَاوية يروي تلك الأحداث . فبطل مقامات بديع الزمان الهمداني أبو الفتح الإسكندري، وراويها عيسى بن هشام. وبطل مقامات الحريري أبو زيد السروجي، وراويها الحارث بن همام ؛ بالإضافة إلى شخصيـات أخرى داخل المقامــة تؤدي أدواراً فيــها ؛ وهكذا.

5- يدور أغلبها على الاحتيال والطواف بالبلدان لجلب الرزق. فهي تـتـضمن عادة قصـة طريفـة حول أحد المكدين, وهم فئة المحتالين الأذكياء البلغاء الذين يبتزون أموال البسطاء من الناس بالحيلة والفطنــة والذكاء .

أسباب نشأة المقامة:

أولاً ـ الظروف السياسية:

أطل القرن الرابع الهجري على الدولة الإسلامية فوجدها من الوجهة السياسية مزقاً شتاتا وأجزاء مفترقات . عصفت بها رياح الخلاف والاختلاف. ساهم بعض خلفاء الدولة العباسية في قيام دويلات ساهمت بدورها في الإغراء بقيامها إغراءً قوياً شديداً، هذه الدويلات التي أنشئت حركت الدوافع الكامنة في نفوس كثير من الأجناس، والقوميات التي يتشكل فيها جسم الدولة على أساسات مختلفة.

في ظل هذه الظروف السياسية، وما أصاب الدولة الإسلامية من تدهور سياسي مريع برز فن المقامة واستوى ناضجاً له أصوله ومقوماته ملامحه وسماته. برزت الحركة الأدبية بروزاً واسع النطاق في عصر كثرت به المشاكل والفتن بالإضافة إلى تغييرات في المجتمع العباسي في أساليب البناء والأكل والغناء والحياة بأسرها هي التي أصبحت الأساس التي قام عليها المجتمع العباسي الجديد، والتي جهد في تصويرها بديع الزمان الهمذاني من خلال مقاماته.

ثانياً ـ الظروف الاجتماعية:

اتشحت الحياة الاجتماعية برداء الحياة سياسية الخُلق، وراح أمراء تلك الدويلات المتناثرة على بقعة الأرض العربية الإسلامية يتنافسون في ابتداع ألوان من السرف، ويفتنون في ابتكار ضروب من الترف، قد يستطيع العقل أن يتخيلها، ولكنه يعجز تماما عن أن يحققها.

كان من الطبيعي أن تكون هذه الحياة البازخة الممزقة باهظة التكاليف، وهذه التكاليف الباهظة يجب أن يتحملها الشعب المقهور كي لا يفسد على سادته متعتهم وينغص عليهم مسرتهم وعيشهم. في ظل هذه الحياة اللاهية العابثة من جانب، والقاسية من جانب آخر كان من الطبيعي أن تكثر المجاعات وتنتشر السرقات وتفشي ألوان من الفسق والفجور وتشيع الكدية والاستجداء.

ثالثاً ـ الظروف الثقافية:

تحول كثير من الأدباء في هذا العصر إلى ندماء في قصور الخلفاء أو مستجدين للأموال بوساطة المديح إلا أن هذا الجانب وحده لا يعطي صورة حقيقة للحركة الفكرية.

لم يقتصر العباسيون في فكرهم على الفكر العربي الإسلامي الخالص بل فتحوا الباب واسعاً أمام التيارات الثقافية المختلفة المعروفة آنذاك (الهندية، الفارسية، اليونانية) تركوها تتصارع مع الفكر الإسلامي الخالص، وتلونه.

كما فتح العباسيون المجال لحرية الفكر في كل اتجاهاتها إلا اتجاها واحدا هو التعرض إلى سلامة دولة الإسلام .

لقد أصبح الفنان الشاعر والأديب في كثير من حالاته بهلوانا أو مستجديا في قصور الخلفاء. كما أن الفكر نفسه قد صار يتعامل به المشعوذون.

من ذلك يمكننا أن نعرف أن ما جمعه بديع الزمان في مقاماته بمهارة تقدم صورة واهية لذلك المجتمع العباسي . غير أن الصورة التي استقى منها بديع الزمان فن المقامة تظل ناقصة إذا أهملنا ظاهرة مهمة لعبت دورا رئيساً في تلك المرحلة ، هي ظاهرة البؤس التي آل إليها حال كثير من الأدباء، وأصحاب المهارات في ذلك المجتمع ، وهنا تتضح كيف كانت المقامة الفنية عند بديع الزمان الهمذاني وليدة بيئة بعينها في مرحلة معينة من مراحل التاريخ .

بناء المقامة :

للمقامة بناء تسير عليه، مكون من دعائم لتصل إلى وحدة فنية محكمة، من هذه الدعائم:

1 - الحادثة : لابد من بناء الحادثة على حكاية ثم عرضها بطريقة التسلسل, والتتابع، ولابد أيضا من اشتمالها على عنصر التشويق لينطلق الكاتب بعد ذلك إلى السرد .

2 - عنصر التشويق : ينبع هذا العنصر من نفسية أبطالها حتى يستثير انتباه القارئ .

3 - السرد : لا بد أن يكون السرد في المقامة مغرياً، حتى يحمل القارئ على المتابعة وذلك بعرض المشاهد, وربطها ببراعة مع بعضها البعض .

4 - العقدة : التي تمثل ذروة الموضوع المسرود وقمته الدرامية وهي مشكلة المقامة التي ينشد لها الراوي والمروي عنه حلاً .

5 - التدرج في الحل ثم اعتمادها على التحليل الدقيق ليصل بعدها الكاتب إلى النهاية.

للاستزادة أكثر ينظر:

1- بديع الزمان: مقامات بديع الزمان الهمذاني
2- محمد أبو الفضل إبراهيم: شرح مقامات الحريري
3- عبد المالك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي